13 جراتسيا ديليدا

«فى سردينيا، جزيرتى المحبوبة، يعيش الناس على وتيرة واحدة، وبنفس الايقاع، يؤمنون بالشعائر السحرية، والأساطير، ويمتلكون قيماً روحية عالية، ويقدسون الحياة الاجتماعية»

الأديبة الإيطالية الفائزة بجائزة نوبل فى الأدب عام 1926م، وهى ثانى امرأة تفوز بهذه الجائزة.

فوزها بنوبل جعل العالم يتعرَّف على الأدب المكتوب فى جزيرتها سردينيا.

كانت غزيرة الإنتاج، فقد ألَّفت أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصصية أشهرها أموت وأحبّك، إلياس بورتولو، الأم.

تدور معظم أعمالها حول موضوع الحب المُحرَّم، والحبّ غير المتكافئ اجتماعياً.

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية الإيطالية «جراتسيا ديليدا» Grazia Deledda فى بلدة «فيورو» الصغيرة الموجودة بجزيرة سردينيا الإيطالية فى 27 من سبتمبر عام 1871 م.

نشأت وتربت فى بيت يتسم بالثراء، لأب يعمل فى التجارة ولكنه كان على درجة لا بأس بها من الثقافة، حيث وفر لها كل سُبل المتعة والتسلية لها كطفلة، ولكن لأن بذور الأدب كانت مزروعة فى جيناتها الوراثية فقد فضلت القراءة على ما سواها من سُبل الترفيه، لتنمو فى داخلها بذور الإبداع والنبوغ.

اكتفت الطفلة «جراتسيا بالتعليم الابتدائى !

تلقت الطفلة «جراتسيا ديليدا» تعليمها فى مدرسة البلدة الابتدائية، ورُغم ثراء أسرتها فإنَّها لم تكمل تعليمها المنتظم مكتفية بالمرحلة الابتدائية، على أن تكمل تعليمها فى بيت أبيها، وهى فى ذلك مثل الكثير من أبناء وبنات جيلها . وما أن بلغت سن العاشرة من عُمُرها حتى تلقت دروساً خصوصية فى اللغة الإيطالية واكتشف مُعلِّم اللغة نبوغها المبكر فى كتابة موضوعات الإنشاء، وطلب منها أن تقوم بنشر ما تكتب فى الصحف والمجلات وكانت آنذاك فى الثالثة عشر من عُمرها، لذلك يمكن اعتبارها من الأديبات العصاميات اللاتى علَّمن أنفسهن بأنفسهن .

ظهور بواكير الموهبة الأدبية فى سن الثالثة عشر :

شجع والدها الذى كان تاجراً مثقفاً موهبة القراءة عند ابنته «جراتسيا»، وقد بدأت بقراءة القصص والروايات ثم اتسعت دائرة قراءاتها تدريجياً، وكانت أمنيتها منذ الصغر أن تكون كاتبة مبدعة .

ولقد تعرَّفت الحياة الأدبية الإيطالية على الكاتبة الناشئة «جراتسيا ديليدا» عندما كان عُمُرها ثلاثة عشر عاماً، حيث نشرت بعض القصص القصيرة فى الصحف والمجلات المحلية التى كانت بمثابة شرارة أنارت لها طريق الإبداع .

الزواج والرحيل من سردينيا إلى روما :

فى عام 1900 م تزوجت «جراتسيا ديليدا» من موظف فى وزارة المالية يُدعى «باليرو مودسانى» سافرت معه إلى روما حيث أحست أنَّها المدينة التى تنشدها ؛ فعاشت فيها سعيدة مع أسرة، تكتب، وتنجح، وتحظى بالكثير من الشهرة والتقدير .

وفى روما اكتشفت الكاتبة عالماً أكثر رحابة متمثلاً فى المدينة بأبعادها الثقافية والحضارية المختلفة ومتمثلة أيضاً فى المؤلفات الأجنبية التى غاصت فيها تلتهمها بنهم شديد حيث كان لهذه الاكتشافات الأثر الأكبر فى كتاباتها التى صارت أكثر تنوُّعاً وانفتاحاً، وفى روما أيضاً بدأت «جراتسيا» مرحلة جديدة من الكتابة اهتمت

فيها بأساطير الجزيرة التى سمعتها وعشقتها فحولتها إلى صيغ جديدة تعج بها قصصها ورواياتها .

الأدباء الذين تأثّرت بهم «جراتسيا ديليدا» :

لم تنكر «جراتسيا ديليدا» إعجابها وتأثرها واستفادتها أيضاً بكتابات الأدباء الكبار أمثال : «شاتو بريان» «وبلزاك» و «فيكتور هوجو» . كذلك تأثرُّها بالكُتَّاب الإيطاليين مثل : « كاردوتشى» و «دانونتسيو»، فضلاً عن الأدباء الروس ؛ وذلك بفضل قراءاتها الشغوفة والمستمرة لأعمالهم الرائعة التى لا شك أنَّها صبغت كتاباتها القصصية والروائية بأبعاد إنسانية أكثر ثراء .

الكتابة وحالات الهروب !

حياة الكاتبة «جراتسيا ديليدا» كانت بمثابة مجموعة من حالات الهروب، فهى لم تتجه للكتابة إلاَّ هرباً من رغد المعيشة فى أسرتها الميسورة، حيث اكتشفت أن القيم الخلقية ليست على ما يرام هناك، لذا اهتمت بحياة الرعاة، وراحت تتأملهم عن قرب . كما كان وجودها الدائم فى مكتبة الأسرة بمثابة هروب آخر، حيث اهتمت بالروايات المسلسلة والشعر العاطفى وروايات الفروسية لذا حاولت أن تعكس فى أدبها صوراً من حالات الهروب بأشكال مختلفة .

جزيرة سردينيا وتأثيرها الهائل فى تشكيل شخصية «جراتسيا ديليدا» الإبداعية :

كان المكان له أثر واضح فى تشكيل شخصية «جراتسيا ديليدا» الإبداعية، فسردينيا الجزيرة الإيطالية تطل على البحر من كل مكان، كما أن القصص الأسطورية التى تملأ جنبات تلك الجزيرة، كل هذا ترك بصمة واضحة فى أدبها.

كذلك فإن نشأة الكاتبة فى سردينيا كان له انعكاسات واضحة على كتاباتها، إذ دارت أحداث معظم أعمالها فى أحضان الطبيعة البكر التى تميَّز بها ريف سردينيا، كما أنَّها فى قصصها ورواياتها حرصت على رسم ملامح نفسية لشخصيات لها القدرة الفطرية على

التمييز والإدراك، وشخصيات تُعانى من أسر المبادىء المتشددة، وقد استمدت هذه الصور من ملامح سكان الريف فى جزيرتها .

بوجود «جراتسيا» انتهى عصر الأدب الشفهى :

يقول الفرنسى «فرانسوا ليفى» : عند الحديث عن «جراتسيا» يجب الاهتمام بعلاقتها بجزيرة سردينيا التى عاشت فيها، وثقافة البحر الأبيض المتوسط على وجه الخصوص، وهى ثقافة ذات شكل متميز تبدو واضحة فى أدب الذين ولدوا فى أحضان الجزر الإيطالية، مثل : سردينيا وصقلية، ومنهم على سبيل المثال : «بيراندييللو» و «ليوناردو وشاشا» .

ففى جزيرة سردينيا عاشت فيها حضارات عديدة من اليونان إلى العرب ثم الرومان، إنَّها أرض ذات نكهة خاصة، وقد انعكس التاريخ واضحاً على سردينيا، لكن هناك فارقاً بين ثقافة سردينيا، وثقافة صقلية، فهذه الجزيرة أنتجت أدباً مكتوبًا، أمَّا سردينياً فأدبها شفى ، ولذا فإن حالة «جراتسيا» قد غيَّرت الكثير من شكل الأدب هناك، حيث كتب وجودها انتهاء عصر الأدب الشفهى تقريباً وبداية الآداب المدونة

إبداع «جراتسيا دى‌ليدا» القصصى والروائى :

بلغت المحصلة النهائية لأعمال «جراتسيا ديليدا» قرابة خمسين رواية ومجموعة قصصية مستوحاة معظمها من أجواء جزيرة سردينيا الجزيرة التي عاشت فيها الكاتبة.

وتدور معظم قصصها ورواياتها حول موضوع الحُبّ المُحرَّم، أو الحُبّ غير المتكافئ اجتماعياً .

فى عام 1890 م نشرت «جراتسيا» مجموعتها القصصية الأولى «فى البحر الأزرق» فى ميلانو . وقد أبدت الكاتبة فى بعض رواياتها مدى ارتباطها بجزيرة سردينيا مثل : رواية «زهور سردينيا» عام 1892 م، وهى أول رواية طويلة لـ«جراتسيا»، حيث بعثت بها

إلى أحد الناشرين فى روما فنشرها ولاقت نجاحاً ملحوظاً، ثم اتبعتها برواية «نصوص من سردينيا» عام 1894 م .

روايتا : «رماد» و «إلياس بورتولو» :

وثمن الوقوع فى الرذيلة !!

مع رحيل الكاتبة «جراتسيا ديليدا» إلى روما بدأت مرحلة جديدة اهتمت فيها بأساطير جزيرة سردينيا، فبدأت برواية «عجوز الجبل» عام 1900م التى تُعتبر مفتاحاً لبقية أعمالها .

وفى عام 1903م نشرت رواية «رماد»، وهى تحكى قصة امرأة ضحت بنفسها من أجل طفلها غير الشرعى . ثم كتبت فى العام نفسه رواية «إلياس بورتولو» وهى بمثابة إعادة كتابة لرواية كتبتها قبل ذلك بثلاث سنوات . وتدور الرواية حول البطل الذى اختار الرهبنة لمعاقبة نفسه على جريمة زنا ارتكبها مع خطيبة أخيه أثمرت طفلاً غير شرعى، ولم يستطع البطل استعادة سلامة النفس إلاَّ بعد وفاة الطفل. وهذه الرواية هى أول رواية لاقت نجاحاً حقيقياً، ومن ثمّ فقدترجمت إلى جميع اللغات الأوروبية .

ثم نشرت بعد ذلك رواية «النبات المتسلق» عام 1906 م ورواية «أموت وأُحبُّك» عام 1908م، والتى كانت أول أسباب فوزها بجائزة نوبل .

ومع بداية عام 1912م اهتم النُقَّاد بشكل واضح بأدب «جراتسيا» حيث قدَّمت رواية «أبيض غامض»، ثم رواية «الحبّ والحقد» عام 1913، ورواية «الطفل المختبىء» فى عام 1915م .

رواية : الأم Madre :

الابن الذى يقع فى الحُبّ المُحرَّم، والأمُّ التى تحمل عذاباً فوق طاقة البشر !!

ابتداء من عشرينيات القرن المنصرم ابتعدت «جراتسيا» بشكل ملحوظ عن القصص الواقعية، واهتمت بالملحميات والأساطير وعلم النفس، فأبدعت رواية «الأم» فى عام

1920م، وهى من الأعمال التراجيدية المتميزة، وقد قارنها «د.ل. لورنس» برواية «مرتفعات وذرينج» ورواية «قصبة فى مهب الريح» .

وهى الرواية التى كانت سبباً فى فوزها بجائزة نوبل فى الأدب . وتدور الرواية حول القسيس الذى يقع فى الحُبِّ المُحرَّم ومن ثمّ الخطيئة، فحمَّل أمه عذاباً لم تستطع حمله . وهذه الرواية ليست رواية أحداث بقدر ما هى رواية أزمات نفسية عاشتها أمّ القسيس «باولو» حين اشتبهت فى أن ابنها ارتكب الخطيئة مع الأرملة «آنييس» . كانت الأم فى الرواية جاهلة ولكنها كانت تعرف بحسها الذى لا يخطىء ما وقع فيه ابنها، فصارحته بالحقيقة، وأخذت عليه عهداً بأن يقطع صلته فوراً بـ «آنييس»، ولنتأمّل هذا المقطع من الرواية :

«ثم مدّ هذه اليد فجأة ووضعها على رأس أمه، وبدا له أن أصابعه المفتوحة قد استطالت بعض الشيء، استطالت وأصبحت أشعة من نور، وقال : أقسم لكِ يا أمى، ألاَّ أعود أبداً إلى ذلك البيت .!!

وأسرع بالابتعاد، وقد خُيلَّ إليه أن كل شيء قد انتهى، لقد نجا، ومع ذلك سمع أمه، وهو يعبر الغرفة الملاصقة، وهى تنتحب بحرقة، وكأنَّها تبكى وفاته !!

وفجأة صعد الدم إلى وجهه، رفع رأسه ليسمع صوت الريح، وقال لنفسه : ما كان يجب أن أقسم، وابتسم ابتسامة غامضة، ثم أضاف : الشخص القوى حقاً لا يقسم - كما أقسمت - شخصٌ لا مانع له من الحنث بقسمه شأنى أنا ..

وفجأة شعر بأن المعركة بدأت حقاً، وأحس بذعر جعله يقوم ويذهب إلى المرآة ليحدق فى وجهه» .

وقد جعلت «جراتسيا» أحداث روايتها تدور فى بلدة صغيرة من إبداعها اسمها «آر» فى مكان لم تسمه، ولا خلاف بين الدارسين على أن وصف البلدة والمنطقة المحيطة بها وأهلها ينطبق على وصف أى بلدة صغيرة فى جزيرة سردينيا مسقط رأس المؤلفة . وقد لجأت «جراتسيا» إلى اللغة الشاعرية فى كتابة الرواية لتلطف

من قتامة الأحداث التى وصفها أحد النُقَّاد الإيطاليين بأنَّها: «أسود روايات المؤلِّفة، التى لا تكتب إلاَّ روايات سوداء» . ووصف ناقد آخر هذه الرواية بتوترها المتصاعد وبقلة عدد شخصياتها .

وقد ترجمت الرواية إلى لغات عديدة، وهى من الأعمال التى ما زالت تلقى إقبالاً لدى الجمهور الإيطالى برغم مرر حوالى تسعين عاماً على نشرها .

رواية : بوص تحت الريح :

البطل الذى يقترف الخطيئة مع الشقيقات الثلاث، ثم يعترف فى النهاية بجريمته على الملأ !!

فى عام 1921م نشرت «جراتسيا ديليدا» رواية «سر الرجل» ثم رواية «إله الأحياء» عام 1922م، ثم رواية «بوص تحت الريح» عام 1923م، حيث مسألة وقوع الإنسان تحت ظل الخطيئة، فالبطل «أفكيس» يحب الشقيقات الثلاث «روث»، و «إستير» و «نوامى» ويمارس معهن الخطيئة، وهو بذلك يرتكب جريمة دون أن تدرى كل منهن إبعادها، إنَّه الوحيد الذى يعرف أنَّه قد قام يوماً بقتل والد البنات الثلاث عن غير عمد، ويود أن يحمى الأسرة خاصة الأخت الرابعة التى ترغب فى الهجرة إلى أوروبا . ولأنَّها أشبه بقطعة من البوص تحت الريح، فيبوح لها بجريمته، ويذهب كى يعيش مع الشحاذين والمتسولين، وقبل أن يموت يعرف أن «نوامى» سوف تتزوج فيروح يحكى قصة البنات للمدينة التى يعيش فيها .

والرواية هى إحدى الأعمال الأسطورية التى قامت الكاتبة بتجديدها وصبغها فى إطار عصرى، وفضلت أن تحتفظ بأسماء البنات الأسطورية واللاتى وقعن تحت سيطرة المأساة دون أن يكون لهن أى يدّ فى ذلك .

وفى عام 1937 م نشرت «جراستيا» رواية بمثابة سيرة ذاتية تحمل اسم «كوزيما» حيث توغلت فى عالم الأطفال، وكان نشر الرواية بمثابة إلقاء للضوء على حياتها الخاصة، سيما أنَّها توفيت قبل نشرها بعام واحد تقريباً .

فوز «جراتسيا ديليدا» بجائزة نوبل فى الأدب :

هى المرأة الثانية التى حصلت على جائزة نوبل فى الأدب عام 1926م . وعندما حصلت «جراتسيا ديليدا» على جائزة نوبل لم تفتح باباً للأدب الإيطالى بقدر ما فتحت أبواباً للعالم كى يتعرَّف على الأدب المكتوب فى جزيرة سردينيا وخاصة الأدباء الذين جاءوا بعدها مثل : «جوزيه ديساى» (1909 - 1977م)، و «جان فرانكو كونتينى» الذى يُطلق عليه النُقَّاد «بروست سردينيا» .

الرحيل :

توفيت «جراتسيا ديليدا» فى عام 1936م عن عُمْر يناهز 65 عاماً . ومن المؤسف حقاً أن كتاباتها قد اختفت بموتها، تماماً كما حدث مع «سلمى لاجيرلوف» الفائزة الأولى من النساء بجائزة نوبل فى الأدب .

obeikandl.com